الحكيم

المقداد بن عمرو

رضي الله عنه

من عرف الإسلام

عرف من أين تأتي الحكمة

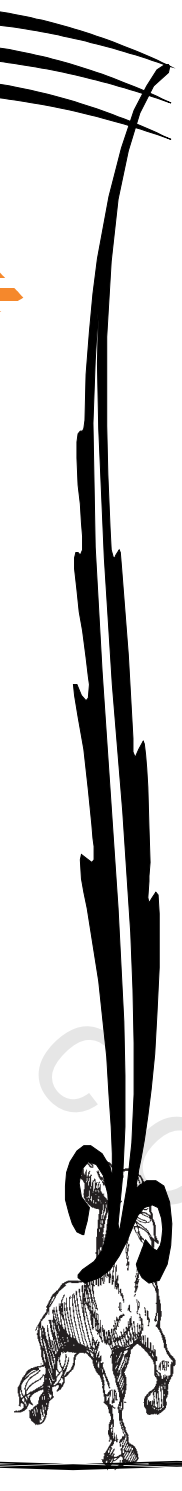

obeikandl.com

«أشيروا علي أيها الناس ».

نادى بها رسول الله ﷺ في المسلمين، بعد أن جاءته الأخبار بتجهيز قريش جيشا، والزحف به نحوالمدينة لقتال المسلمين في بدر.

وكم كان الموقف صعبا، ويدعوالى القلق..

فالمسلمون غير مستعدين لهذه الحرب، وهم لم يخرجوا إلا للإغارة على قافلة أبي سفيان لاسترداد أموالهم التى نهبتها منهم قريش في مكة بسبب الهجرة، وعدد المسلمين يزيد على الثلاثمائة بقليل مقابل ألف من المشركين، ليس فيهم إلا فرسان فقط وسبعون بعيرا، يتعاقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد.

ومبايعة الأنصار الذين يصل عددهم إلى أكثر من مائتى وثلاثين رجلا، مقابل ست وثمانين من المهاجرين، تقضي بالدفاع عن الرسول ﷺ داخل المدينة وليس خارجها.

والرجوع إلى المدينة دون ملاقاة العدو، يعني ضياع هيبة المسلمين وإعطاء قريش فرصة للتجرؤ عليهم، ودليل قاطع بالخوف منهم.

إذن لم يكن هناك بد من الحرب ..

وأيضا لم يكن هناك بد من الشورى وأخذ الرأي، لجس نبض المسلمين في هذا الموقف العصيب، ومعرفة مدى قبولهم لفكرة الحرب في هذه الظروف.

وكان أول من تحدث أبو بكر وعمر، واللذان أبديا استعدادهما الكامل لخوض المعركة.

إلا أن الرسول ﷺ لم يكن بحاجة إلى معرفة رأي صاحبه ورفيقه في الغار أبو بكر الصديق، والرجل الشجاع الذي تحدى مكة كلها يوم هجرته عمر بن الخطاب.

كان يريد أن يستمع إلى آخرين..

وكان أول هؤلاء الآخرين.. المقداد بن عمرو.

فلقد وقف المقداد بن عمرو بكل شجاعة قائلا للرسول ﷺ في حماسة:

- يا رسول الله..

امض لما أراك الله فنحن معك.. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.. بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] ، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولنقاتلن عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك حتى يفتح الله لك.

---

(١) **برك الغماد**: مكان.

كانت قوة الكلمات وصدقها دافعا لأن يتهلل وجه الرسول ﷺ، وأن يثلج صدره من كلمات الفارس الشجاع.

وكان موقف المقداد في تلك المحنة مبهرا، دفع الصحابة ينظرون إليه بإجلال حتى قال عبد الله ابن مسعود:

- لقد شهدت من المقداد مشهدا،لأن أكون صاحبه، أحب إلي مما في الأرض جميعا.

ولم يكن ليتعجب كثيرا من يعرف المقداد بن عمرو، من موقفه ذاك اليوم.

فالمقداد لم يكن من مكة في الأصل، بل عاش في حضرموت، وكان أبوه عمرو بن ثعلبة بن مالك من شجعان قومه الذين كانوا يحبون مقارعة السيوف ومطاعنة الرماح، وكان هناك حلف بين أبيه وبين قبيلة كبيرة هناك تسمى كندة، إلا أنه حدثت مشكلة كبرى بين المقداد وأحد زعمائها (أبي شمر بن حجر الكندي) اضطر المقداد على إثرها إلى أن يهرب إلى مكة، وهناك تحالف مع أحد جبابرة قريش ليحميه، وهو (الأسود بن عبد يغوث الزهري)، الذي ما لبث أن تبناه ليسمى بعدها المقداد بن الأسود، والذي ما لبث أن تحول بعد نزول القرآن بتحريم التبني إلى المقداد بن عمرو.

وعندما بدأت دعوة النبى ﷺ تلوح في الأفق، كان المقداد شابا في الرابعة والعشرين من عمره، وأخذت دعوة الحق طريقها إلى قلبه سريعا، فأسلم في السنة الأولى من البعثة، وكان من القلائل الذين أعلنوا إسلامهم في مكة، ليشارك الرسول ﷺ مشواره الصعب في مكة لنشر الرسالة.

وفي دار الأرقم، وفي السنة الخامسة من البعثة، يمكث المقداد مع أصحابه يتلقى تعاليم الإسلام وآيات القرآن، وبعد اشتداد العذاب بالمسلمين وتعرض الدعوة لمحنة عصيبة، يخطط الرسول ﷺ لهجرة المسلمين للحبشة لتأسيس قاعدة جديدة للدعوة في حماية النجاشى، ويهاجر المقداد مع الوفد المهاجر، إلا أنه يعود إلى مكة مرة أخرى ويظل فيها حتى هجرة الرسول ﷺ للمدينة، إلا أن تضييق المشركين على المهاجرين منع المقداد من الهجرة ، فمكث في مكة إلى أن بعث الرسول ﷺ بسرية بقيادة عبيدة بن الحارث، وخرجت مجموعة من المشركين بقيادة عكرمة بن أبي جهل، كان فيهم المقداد وعتبة بن غزوان وهما مسلمان، فلما تقابل الفريقان انضم المقداد وعتبة إلى سرية المسلمين، ليعودا معهما إلى المدينة دون أن يحدث قتال.

أخيرا لحق الفارس بالرسول ﷺ وأصحابه في المدينة، ليبدؤوا معا بناء دولتهم الوليدة بعد أن تخلصوا من عناء قريش مؤقتا.

أحب الرسول ﷺ المقداد..

أحب فيه شجاعته وجرأته..

وزاد حبه له أضعافا مضاعفة يوم بدر، فلقد كانت كلماته حافزا كبيرا للمسلمين للإقدام على المعركة، وبحديثه.. كان الرسول ﷺ قد قطع نصف الطريق مع المهاجرين، ليكمل سعد بن معاذ

بكلامه الرائع النصف الآخر مع الأنصار.

ولم يتميز المقداد بن عمرو بخطابه الرائع قبل المعركة فحسب، بل كان مميزا أيضا داخل المعركة، فلقد كان واحدا من اثنين من الفرسان مع الزبير بن العوام، الذين خاض بهم المسلمون الحرب مع قريش.

وبعد النصر العظيم في بدر، يصحب الفارس فرسه ليكمل مشوار جهاده مع من أحبه، في أحد والخندق وما بعدهما، فلم يكن الفارس الشجاع ليتخلف عن نداء الجهاد مرة واحدة.

وكان لورع المقداد وتواضعه دافعا لأن يختاره الرسول ﷺ أميرا على إحدى الولايات.

إلا أنه ما لبث أن أزعج المقداد الأمر، كما كان يزعج أمثاله عندما يدخل حلبة الصراع مع الدنيا، فيصاب بالتوتر والقلق من أن يصيبه مرض من أمراض السلطة .

لذا.. كان المقداد مصرا ألا يتولى على أحد مرة أخرى، وهذا ما صرح به للرسول ﷺ حين سأله عن أحواله بعد الحكم قائلا:

«كيف وجدت الإمارة يا مقداد ؟».

أجاب المقداد في ضيق قائلا:

- يا رسول الله..لقد جعلتني أنظر إلى نفسي كما لو كنت فوق الناس، وهم جميعا دوني!

ثم تابع قائلا للرسول ﷺ في توسل:

- والذي بعثك بالحق، لا أتأمرن على اثنين بعد اليوم أبدا.

كان المقداد يرى أن السلطة قد تقترب إلى مستوى الفتنة، التي يفضل أن يبتعد عنها الإنسان، وكان كثيرا ما يردد قولا سمعه من رسول الله ﷺ يقول فيه:

«إن السعيد لمن جنب الفتن».

تعلم المقداد من بيئته قبل إسلامه الشجاعة والفروسية، بما فيها من مغامرة قد تصل إلى حد التهور.. ثم جاء الإسلام ليعلمه الهدوء والتريث في الحكم على الأمور، والتفكير العميق قبل أن يتخذ قراره الأخير، ليعرف الفرق بين المغامرة بحياته والمغامرة بآخرته.

ولم يملك الرسول ﷺ إلا أن يشهد له شهادة بحبه يحسده عليها الجميع، فلقد قال له يوما:

«يا مقداد..إن الله أمرني بحبك.. وأنبأني أنه يحبك».

ماذا يريد المقداد من الدنيا بعد هذه الشهادة ؟ وماذا سيزيده بعدها لو ملك الدنيا كلها؟

وبعد وفاة الرسول ﷺ.. جاء جيل كان يتمنى رؤية الرسول ﷺ، ويحسد الصحابة على السنين التى كانوا يرون فيها النبى ﷺ ليل نهار، وظلوا يتمنون بكل شوق أن لو كانوا معه في عصره التاريخي الفريد، فيجاهدون معه لنصرة دينه ونشر رسالته.

إلا أن حكمة المقداد كانت قد تجلت كثيرا، وأصبحت آراؤه متفردة غير متوقعة.

فبينما هو جالس مع أحد أصحابه، مر رجل من أمامهما، فقال في شوق وتأمل:

– طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أن رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت.

نظر إليه المقداد مستغربا وهو يقول:

– ما يحمل أحدكم على أن يتمنى مشهدا غيبه الله عنه ؟ لا يدري لو شهده كيف كان يصير فيه؟ والله، لقد عاصر رسول الله ﷺ أقواما كبهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم.. أولا تحمدون الله الذي جنبكم مثل بلائهم؟ وأخرجكم مؤمنين بربكم ونبيكم ؟

إنها رؤية رجل غاص في الحياة وتأمل فيها ونال من حكمتها الكثير.

إن الملايين من المسلمين يتمنون هذه الأمنية، لكنهم يرون منها جانبها الإيجابي فقط، ولا يفكرون في الصراع المرير الذي تعرض له الجميع.. فنجح من نجح وفشل من فشل، والفشل في هذا الصراع كان لا يعني إلا شيئا واحدا..

جهنم..

إذا كان الله لم ينعم على الأجيال التي عقبت حياة الرسول ﷺ برؤيته، فإنه أنعم عليهم بتجنبهم صراعات عنيفة سقط فيها الكثيرون.

هكذا رأى المقداد، وهكذا كشفت رؤيته عن حكمة فيلسوف مفكر.

لقد أضاف الإسلام إلى المقداد الكثير.. وكان اعتزازه بالإسلام يزيد كلما مرت به الأيام وصادفته المواقف.. و

«ما بك يا أخي ».

هتف بها المقداد بن عمرو في قلق بعد أن رأى أحد إخوانه مهموما بشدة، وقد خرجا في سرية كان العدو قد تمكن فيها من حصارهم، ثم قال له وهو يطرق رأسه:

– لا شيء. .لا شيء يا مقداد.

قال المقداد ملحا:

– قل لي يا أخي، ما بك بالله عليك؟

وبعد إلحاح من المقداد قال صاحبه في أسى:

– لقد عاقبني الأمير عقابا مبالغا فيه، بعد أن أمر بألا يرعى أحد دابته بعد الحصار..أعترف أنني أخطأت، ولكني أعتقد أيضا أنني لم أكن أستحق مثل هذا العقاب الشديد.

وما إن اقتنع المقداد بوجهة نظر صاحبه، حتى أخذه من يده وهو يقول له:

- قم بنا يا أخي..قم بنا.

قال صاحبه متسائلا:

- إلى أين ؟

قال المقداد في حسم:

- إلى الأمير..نناقشه فيما فعل.

وبينما كان صاحبه في دهشة من أمره من تلك الجرأة التى كان عليها المقداد، إلا أن دهشته تضاعفت وهو يجد المقداد يقف أمام الأمير ويناقشه ويراجعه ويقنعه بوجهة نظره، ويثبت خطأه فيما قرر من عقاب !

ويعترف الأمير بخطئه !

وهنا يطلب المقداد من صاحبه ما زاد من دهشته قائلا له:

- اقتص من أميرك.

وفوجئ الرجل بطلب المقداد له، كما فوجئ بقبول الأمير لحكم المقداد، وهنا أطرق الرجل رأسه قائلا في خجل:

- إني أعفو عن أميري وأصفح.

وعندها.. قال المقداد في عزة وشموخ:

- لأموتن والإسلام عزيز.

نعم.. من حق المقداد أن يفخر بدينه بعد هذا الموقف الذي يجسد العدل والمساواة والتواضع كأفضل ما يكون.

وفي العام الثالث والثلاثين من الهجرة، مات المقداد بن عمرو، بعد أن وصل إلى عامه السبعين..

عزيزا.. والإسلام عزيز.

وبعد.. هل تعرف يا مقداد كيف أصبحت عزة المسلمين الآن ؟!

سنتقابل يوما إن شاء الله.. ونتحاكى معا.

* * *

دروس وتحليل

١- نصرة الدين والرسول ﷺ لا تكون بالكلام.. إنما بالعمل (المقداد بن عمرو يهتف بنصرة الرسول ﷺ ويشجعه على الدخول في المعركة).

تعودنا دائما أن ننصر الرسول ﷺ بالكلام والهتاف والمسيرات، وهوأمر محمود إذا ما تبعه عمل، والعمل الوحيد الذي لابد أن يتبعه، هوالالتزام بسنته وبكلامه وبتعاليمه والاقتداء به، فما معنى أن نحزن لإهانة الرسول ﷺ، ونحن نتجاهل ما أمرنا به ؟ بل ونفعل عكسه ! وما معنى أن نرفض إهانة الغرب للرسول ﷺ، ونحن نهين ما جاء به الرسول ﷺ في كل يوم وكل دقيقة وكل لحظة ؟! وهل إذا كان الرسول ﷺ بيننا ووجد هذه الهتافات والمسيرات، ثم رأى حياتنا اليومية بكل ما فيها من سلوكيات خاطئة ومعاص واضحة جلية لا تخفى على أحد.. هل كان سيفرح الرسول ﷺ بنا ؟ هل سيشكرنا على أصواتنا العالية ؟ هل سيحمد لنا جهدنا في السير كيلومترات للتنديد بما حدث ونحن مصرون على ما نفعله؟

لازلنا نجيد التعامل مع المواقف بالكلام والعاطفة، ولا نحب أن نكون عمليين، ونترجم ما نريده إلى عمل حقيقي يتطلب الجهد والصبر والوقت.

٢- المجتمع المسلم يظل قويا عندما يكون هناك حساسية من تولى السلطة، وينهار المجتمع عندما يدب مرض حب السلطة في أوصاله (المقداد بن عمرو كان يشكو من تأثير السلطة عليه).

لا أحد يحب السلطة في العالم كله (الآن) ويتشبث بها، كما يحبها ويتشبث بها المسلمون في الدول الإسلامية، فهم يحبون السلطة حتى الموت، وبعد الموت يورثونها لأبنائهم، وفي سبيل ذلك يجرون التعديلات الدستورية ويغيرون القوانين ويضحكون على الشعوب ويفعلون كل شيء من أجل أن تصبح السلطة في أيديهم بأي ثمن.

إنه مرض.. مرض خطير.. لا يمكن الشفاء منه إلا إذا أدرك الحاكم أنه سيحاسب يوما ما، سواء من الله في الآخرة، أو من شعبه في الدنيا.

وفي الدول غير الإسلامية (التى نطلق عليها كافرة) يحبون السلطة..نعم.. ولكن ليس إلى درجة الهوس المرضى الموجود في البلاد الإسلامية (المؤمنة)، فهم يعلمون أنهم سيحاسبون، وإذا أخطؤوا فإنهم يعتذرون أمام شعوبهم، ومنهم من لا يتحمل الخطأ فينتحر !

إن السعى إلى السلطة والقيادة وتولى الأمور ليس عيبا ولا جريمة، ولكن العيب والجريمة أن تصبح السلطة هدفا نهائيا، بغرض الوصول إلى المال والنفوذ والاستمتاع بشهوة التجبر على الخلق، إن الإسلام جعل السلطة والحكم وسيلة لإدارة شؤون العباد، وإقرار الحق والعدل، الذي حارب من أجلهما الإسلام سنوات طويلة، إنها مسئولية أمام الله قبل البشر، وإذا فسد قلب من يتولاها، فسد معه كل شيء، وسيحاسب يوما على كل شيء.

٣- الكثير من المسلمين يتمنون أن لو كانوا فى عصر الرسول ﷺ، وهم لا يدركون خطورة هذه الأمنية (المقداد يتعجب من الذين يتمنون أن لو كانوا من المعاصرين للرسول ﷺ).

لم يكن عصر الرسول ﷺ عصر إيمان بالدرجة الأولى، بل أرى أن معظمه كان عصرا لا يخلو من فتنة وقع في براثنها الكثير ، وأرى أن فتنة أيام الدعوة، كانت أشد فتنة من أيامنا هذه، والتي كثرت فيها الشهوات والمفاسد، وأصبحت تطارد الملتزمين أو من يريد الالتزام في كل مكان.

إن فتنة أيام الرسول ﷺ كانت فتنة اعتقاد، إيمان أو كفر، ليس في الأمر فصال، وكانت الضغوط لا حدود لها على المسلمين وعلى من يريد الإسلام من الأهل والعشيرة والصحبة، وكان هناك من يعرف أن الإسلام هو دين الحق، ولكن يمنعه الخوف من الإيذاء أو كلام الناس أو فقد المكانة..لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق.. ولم يكن اتخاذ قرار تغيير العقيدة ومحاربة الدنيا كلها من أجله، بالأمر الهين البسيط.

حتى بعد وفاة الرسول ﷺ، وقع الآلاف في فتنة الردة..هل كان أحد يتوقع ذلك ؟!

وما أدرى من يتمنى أن لو كان في عصر الرسول ﷺ، ألا تقبض روحه في صف من يحاربون الدعوة ويؤذون الرسول ﷺ ويعذبون الصحابة ؟!

وما أدراه ألا يقتل على الكفر في بدر أو أحد أو الأحزاب أو غيرها ؟

إن المعادلة بين عصر الرسول ﷺ وعصرنا، تكاد تكون موزونة إلى حد ما، وفي الحالتين.. مطلوب الصبر وجهاد النفس وتحمل الشدائد والدعاء المستمر من أن يفتن المسلم في دينه.

بالتأكيد هناك عصور أفضل بكثير مما نحن فيه، ولكن الأمور تقدر بقدرها، والله يزن طاقة كل إنسان وجهده وقوة تحمله وصبره، بمقاييس غاية في الدقة تراعي تلك الفوارق بين زمن وآخر، كما تختلف قيمة العملة من وقت لآخر.

عش في زمانك، وكلما زاد البلاء.. زاد الأجر والثواب.

٤- الجنود فى الإسلام يحاسبون القائد على الخطأ، والقائد فى الإسلام يعتذر إذا أخطأ (المقداد ابن عمرو ينصر زميله على قائده الذى بالغ فى عقابه.. والقائد يعتذر).

لا يمكن أن يؤدي المسئول وظيفته بإتقان، إلا إذا أدرك أنه سيحاسب على الخطأ.. سواء ممن هم تحت قيادته أو من مستوى إداري أعلى منه، ولا يمكن أن يشعر الناس بالانتماء، إلا إذا شعروا أن من حقهم محاسبة المسئولين إذا أخطؤوا.. هذه هى معادلة الحضارة والتقدم التى صنعها الإسلام مع المسلمين الأوائل، وهى نفس المعادلة التي اختلت أطرافها بعد ذلك، ليصل الانهيار العربي والإسلامى إلى ما وصل إليه.

إن أسطورة اعتذار القائد لم نعد حتى نحلم بها في بلادنا العربية، فالقائد دائما ملهم، دائما لا يخطئ، وإذا حدث خطأ فبالتأكيد ليس هوالمسئول.. دون مناقشة !!

إنها تركيبة التخلف الذي نعيش فيه، ولن يزول إلا إذا اعتذر القائد، كما اعتذر قائد المقداد بن عمرو للجندي الذي أخطأ في حقه.